التّلقي في النّقد العربي القديم

د.سميحة عباس

جامعة عنابة

الملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى إعطاء نبذة عن التلقي في النقد العربي، ومساهمته في تكوين الفعل النقدي، وتبيان أثره في عملية الفهم والتذوق، عند كل من عبد القاهر الجرجاني وحازم القرطاجني، اللذين ساهما كثيرًا في اثراء النقد العربي، وتغيير وتيرة التلقي، لأن الشعرية العربية عرفت وعيا بالتلقي وبوجوده.

الكلمات المفتاحية: النقد العربي، التلقي، النص الأدبي، عبد القاهر الجرجاني، حازم القرطاجني.

Summary:

This article seeks to give an overview of the reception in Arab criticism, of its contribution to the formation of the critical act and its impact on the process of comprehension and sensation, both by Abdul Qahir al-Jarjani and Hazem. al-Qartajani, who greatly contributed to enriching Arab criticism and changing the frequency of reception, because Arab poetics experienced an awareness of reception and its presence.

Keywords: Arab critic, reception, literary text, Abdul Qahir Al-Jarjani, Hazem al-Qartajani.

مقدّمة:

لم يَنفَصِل النّص العربي عن متلقّيه الذّي كانَ رُكناً أساساً لا تكتمل حقيقة النّص دونَ حضوره، ولعلّ أقدم المُنجَزات اللّغوية التّي كشفت لنا ردود فعل المتلقّي وتفاعله مع النّص هي: «حكومةُ أمّ جندب بين امرئ القيس وعلقمة، وكذا جمهرة العرب حول القبّة الحمراء للنّابغة الذّبياني في سوق عكاظ، يوم كان الشّعراء يُقبِلون من كلّ فجّ يُنشدون أشعارهم، وفي حُكمِ ربيعة بن حذار الأسْدي على الزِّبْرقان، والمخبل السّعدي، وعَبدة بن الطّيب، وعمرو بن الأهتم».[1]

كَثُرت مظاهر التّلقي في أدبنا العربي القديم مع أنّ الضّبط النّقدي المنهجي والعلمي لآليات القراءة ومكانيزماتها لم تتمّ بعد، « فالتّلقّي القديم لشاعِر القبيلة قائمٌ على علاقة الدّم والعصبيّة»[2]، وعلى الطّبع والذّوق السّليمين اللّذين سمحا له بتسجيل حضوره في العملية الإبداعيّة خاصة، والسّاحة النّقدية الأدبية عامة،فالمتلقّي رُكن من أركان العمليّة النّصيّة التّي هي فعلٌ تواصليّ تفاعليّ بالأساس،موقف المتلقّي منه بالقَبول أو الرّفض حاسمٌ في إكمال حقيقة النّص،وفي الحكم عليه بالنّجاح في أداء وظائفه من فشله، إنّه متلقٍّ إيجابي، يتفاعل مع النّص وصاحبه ويبدي موقفه المؤسَّس على قراءته الثّرية للنّص ولسياقاته العامّة المحيطة به، انظُر مثلا إلى قبول النّابغة الذّبياني لرأي المتلقّي - الجارية- لما صحّحت الإقواء في قوله:

زَعَمَ البَوارِحُ أَنَّ رِحلَتَنَا غَدًا

وَبِذَاكَ خَبّرَنَا الغُدافُ الأسْوَدِ

فما ذلك إلاّ دليلٌ على اعتراف صاحب النّص بوجود المتلقّي وأهمية رأيه فيما يُعرَضُ عليه.

إنّ المتتبّع للحركة النّقدية العربية يُدرك التّحول الذّي أُحدِث على مستوى التّلقي،فبعد أن كانت علاقة المتلقّي بالنّص سطحية. ومجمل آرائه تَرجِع إلى دائرة المعايير الأخلاقية والذّوقية والقواعد الجمالية المتعارف عليها، أصبح هذا المتلقّي لا يكتفي بوصف النّص بل ويتماهى معه وينصهر فيه، حدث ذلك خاصّةً مع مجيء الرّواة نحو: أبي عمرو بن العلاء، وحمّاد الرّاوية، والمفضّل الضّبي، والأصمعي وغيرهم، «فهؤلاء الرّواة كانوا يتلقّون النّصوص ويتفاعلون معها على نحو خاص، فقد كانوا يستمتعون بها كسائر

المتلقين، ولكنّهم كانوا إلى جانب المتعة الفنّية التيّ يستَشعرونها يتواصلون معها»[3]. فالرّواة إذن لم يكتَفوا بتسجيل مروياتهم فحسب، بل تعهّدوها بالتّنقيح، وتدخّلهم في النّصوص هو في الحقيقة ردّة فعل إزاءها، وقراءة لها:« فالقراءة ليست عودة إلى أصل النّص أو انعكاسا مقبولا للكتابة »[4]، بل هي محاولة إنتاج نص يفوق نصّ المبدع أو يكون دونه.

لقد أحدث الرّواة تحوّلاً كبيرًا على مستوى التّلقي الذّي ازدادت وتيرتُه مع أصحاب الشّروح، وخاصة مفَسّري الأشعار الذّين لم يَكن همّهم تبيان دلالة الألفاظ على المعاني من خلال النّسيج اللّغوي، بل كان شُغلهم الشّاغل الكشف عن الشّحنات الدّلالية للخطاب الشّعري، واحتمالات المعاني للكلمات حتىّ يتسنىّ لهم تجاوز المعاني الظّاهرة إلى المعاني المضمرة والمخبوءة، وفي هذا السّياق لا بدّ من رصد جهود البلاغيين والنّقاد وفضلهم في تغيير النّظرة إلى وظائف المتلقّي من أفقية موازية للمسار الخطي للنّص إلى نظرة عمودية تخترق بيانات النّص كما يخترق عمود الاسمنت الأرضية الصّلبة قصد سبر أغواره، وتفتيق شفراته، والكشف عن مكنونه الجمالي والمعرفي الإيديولوجي. ومن أمثلة البلاغيين يسطع نجم اسم عبد القاهر الجرجاني في كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، وحازم القرطاجنّي في "المناهج البلغاء وسراج الأدباء"، وابن طباطبا في "عيار الشّعر"... وغيرهم من النّقاد الذّين ألّفوا أمّهات الكتب البلاغية والنقدية التّي أفادتنا في معرفة الحضور الخطير للمتلقّي وإسهامه في تكوين الفعل النّقدي، كما رصدت لنا حركية التلّقي في النّقد العربي.

ونظرا لكثرة البلاغيين والنّقاد العرب الذّين قدموا الكثير في هذا المجال، سنتوقّف عند آراءٍ للعبقَريين "عبد القاهر الجرجاني"، و"حازم القرطاجني" لنتبيّن موقفهما من التّلقي والمتلقّي وأثره في عملية الفهم.

1- التّلقّي :خصائصه وأركانه عند عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ):

يتّضحُ حضورُ المتلقّي جليًا في تفاعله مع النص وردود فعله إزاءه، لا سيما إذا كان النّص متمنّعا أو مغلقًا. فكلما كانت مسالك النّص وعرة، ومكنوناته بعيدة المنال، وطرقه متشعبة كان حضور المتلقّي قويا، وشهيته للبحث عن المعنى كبيرة ومتعته أكبر بعد تحصيلها. وهذا ما أشار إليه الجرجاني في قوله: «[...] المعنى إذا أتاك ممثّلا فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة، وتحّريك الخاطر له، والهمّة في طلبه، وما كان منه ألطف كان امتناعه عليك أكثر، وإباؤه أظهر،واحتجابُه أشد، ومن المركُوز في الطّبع أنّ الشّيء إذا نِيلَ بعد الطّلب له والاشتياق إليه، فكان من النّفس أجلَّ وألطف، وكانت به أظنّ وأشغف، ولذلك ضُرب المثلُ لكلّ ما لطُف موقعُه ببَرد الماء على الظّمأ كما قال:

وَهُنّ ينبذن من قولٍ يُصِبنَ به

مواقعَ الماء من ذي الغُلّة الصّادي »[5]

المتلقّون إذن أصناف؛ واحدٌ يكتفي بالوقوف على ضفاف النّص كالمتفرج على خشبة مسرح، وآخر له زادٌ معرفيّ ومنهجيّ يؤهّله للغوص في عوالم النّص، ومراودته عن نفسه حتىّ يتمكّن من الاستحواذ على كنوزه الدّلالية وإفراغ كمونه المعرفي، إنّه المتلقّي الذّي يفتح له النّص ذراعيه، ويرحّب به ضيفا عزيزا، وهو أيضا من يُكبِرُه

الجرجاني ويشيد بعمله الضّمني والمسؤول، ويجعله من أصحاب المعرفة: « فإنّك تعلم على كلّ حالٍ أنّ هذا الضّرب من المعاني كالجوهر في الصّدَف لا يبرز لك إلا أن تشقّه عنه، وكالعزيز المحتجِب لا يُريكَ وجهَه حتى تستأذن عليه، ثمّ كلّ فكر يهتدي إلى وجه الكشفِ عمّا اشتملَ عليه، ولا كلّ خاطر يُؤذِنُ في الوصول إليه فما كلّ أحدٍ يُفلح في شقّ الصّدَفة، ويكون في ذلك من أهلِ المعرفة، كما ليس من دنا من أبواب الملوك فُتِحَت له وكان:

مِنَ النّفَر البِيضِ الذّينَ إذا اعتُزِوا

وهَاب رجالُ حلقة الباب قعقعوا

أو كما قال:

تُفتّح أبواب الملوك لوجهِه

بِغَير حجابٍ دونه أو تملّقُ »[6]

إنّ غاية كلّ إبداع هي التّأثير في المتلقّي، أمّا غاية هذا الأخير فهي الوصول إلى المعنى الموضوعي للنّص، وعلى قدر التّعب الفكري والاستدلالي في البحث عن ذلك المعنى تكون المكافأة، ومكافأة المتلقّي/ القارئ الحقيقي هي حصول اللّذة في نفسه، والرّضا في قلبه، وهذا ما يوضّحه الجرجاني في قوله: «وإنما يزيدك الطّلبُ فرحًا بالمعنى وأُنسًا به وسرورًا بالوقوف عليه إذا كان لذلك أهلا»[7].

ويبرز حضورُ المتلقّي في الخطاب عند الجرجاني في تأكيده على ضرورة جودة العمل الإبداعي سواءٌ في مضمونه المعرفي ورُقي رسالته إلى المتلقّي، أو في احترامِه لأحوال هذا المتلقّي وقدراته واهتماماته، فالنّص الجيّد يحملُ متلقّيه على الحركة الفكرية والسّلوكيّة بعد أن يُثيرَه ويَفعل فيه، من أجل ذلك قُلب كلّ تأكيد: لا خيرَ في نصٍّ لا يؤثّر في قارئه ولا يحرّك عالمه، ومن شروط تحقيق ذلك حسب الجرجاني أن يتعالى النّصّ عن التّعقيد والغلوّ والغرابة والإبهام، «وأمّا التّعقيد فإنّما كان مذمومًا لأجل أنّ اللّفظ لم يُرَتّب الترّتيب الذّي يُمثّله تحصلُ الدّلالة على الغرض حتىّ احتاجَ السّامع إلى أن يطلُب المعنى بالحيلة ،ويسعى إليه من غير الطريق، كقوله:

ولِذا آسمُ أغطيه العُيون جفونهَا

من أنهَا عَملَ السّيوف عواملُ »[8]

يعلّق الجرجاني قائلاً: « وإنما ذُمَّ هذا الجنس لأنّه أَحوَجك إلى فكرٍ زائدٍ على المقدار الذّي يجب في مثله، وكَدّك بسوء الدّلالة، وأودع المعنى لك في قالبٍ غير مستو ولا مملّس بل خشن مُضرس، حتى إذا رمتَ إخراجَه منه عَسُرَ عليكَ، وإذا خَرجَ خرجَ مشوّهَ الصورة، ناقص الحُسن»[9]. ولهذا يدعو إلى حسن نظم الكلام وترتيب معناه حتىّ يكون له الوقع الحسن في نفس المتلقّي، فتتولّد لديه استجابة فعّالة يفجّر بها مكتنزاته ويفتق بنياته. من الواضح أنّ المتلقّي لن ينطلق في مسيرة الفهم والتّأويل مع نصّ غامض معقّد، هو يفعل ذلك مع نصّ معقول الوضوح معتدلا وسَطا ما بين الابتذال السّخيف والغلو المغرِب، وحُسن نظم الكلام من عوامل تداول النّص وتحقيق فعله في المتلقّي: «وقد علِمت إطباق العُلماءِ على تعظيم شأن النّظم، وتفخيم قدره، والتّنويه بذكره، وإجماعهم أن لا فضل مع عَدمه، ولا قدرَ لكلامٍ إذا هو لم يستقم له ولو بَلَغ في غرابة معناه ما بَلَغ» [10].

لا يُسقِط الجرجاني دورَ القارئ / المتلقّي مع المؤلّف في تحقيق نصّية النّصوص، لذلك تراه يُصعّب من مهمّته، ويفرِض له ضوابط، ويشترط

عليه امتلاك أدوات معرفيّة وآليات منهجيّة تمكّنه من غزو النّص إن رفَض البوح بمكنوناته بسهولة، من تلك الأدوات: قدرة التّأمل، وفضل الرّوية: «ومنه (أي الكلام) ما يقرُبُ مأخذه، ويسهل الوصول إليه ويُعطي المقادة طوعًا... ومنه ما يحتاج فيه إلى قدرٍ من التّأمل، ومنه ما يَدقّ، ويغمضُ حتىّ يحتاج في استخراجه إلى فضلِ روية، ولطف فكرة »[11]. إنّ امتلاك القارئ لهذه الأدوات يجعل تمنّع النص أمرًا مستحبًا لديه، وحافزًا كبيرًا للبحث والتّأويل، «فيصبح فعل القراءة بحثًا في فضاءات ذلك النّص، ومحاولة للتّواصُل الثّقافي والمعرفي والفكري معه»[12].

لا يحصر الجرجاني حضور المتلقي ومشاركته في العملية الإبداعية في أدوات القراءة المشار إليها آنفًا، بل يتّضح أكثر في التّأويل، الذّي يعدّه أداةً قرائية متميزة وقوية المفعول، إن لم نقل إنّه نتيجة حتمية لاستثمار أدوات القراءة، لأنّ التّأويل هو محاولة امتلاك المعنى الموضوعي للنص، وهو أيضا بابٌ لدخول غياهبه والتّمتع بلذائذه. ولأجل هذا خصّص الجرجاني في كتابه "أسرار البلاغة" قسما وسمه ب: "التّعليل والتّخييل والتّأويل في الصّفة"، وقسمًا آخر عنونه ب: "العكس في التّمثيل بالتّأويل". وقد تناوَل في هذين القسمين قضية التّعليل التّخييلي والتّأويل بتفصيلٍ كبير، ودعّم أقواله بالكثير من الشّواهد الشّعرية ، اخترنا منها تأويله لقول ابن المعتز: [13]

صدّت شُرير وأزمعت هجري

وصغت ضمائرها إلى الغدرِ

قالت: كبرتَ وشيبت قلتُ لها

هذا عُبار وقائعُ الدّهر

« ألا تراه أنكرَ أن يكون الذّي بدأ به شيبًا، وأرى الاعتصام بالجحد أخضر طريقا إلى نفي العيب، وقطع الخصومة، ولم يسلك الطريّقة العامية، فيُثبت الشّيب ثمّ يمنع العَائب أن يُعيب، ويُريه الخطأ في عيب به، ويُلزمه المناقصة في مذهبه، وهكذا إذ تأوّلوا في الشّيب أنّه ليس بابيضاض الشَّعر الكائن في مجرى العادة وموضوع الخِلقة، ولكنّه نورُ العقل والأدب قد انتشر وبأن وجهه كقول الطّائي الكبير (أبوتمام):

ولا يُروّعك إيماضُ القتير به

فإنّ ذلك ابتسام الرّأي والأدب»[14]

لقد تمكّن الجُرجاني -بالتّأويل- من إعادة بناء الصّورة الشّعرية التيّ أرادها الشّاعر معتمدا في ذلك على أُفقه الخاص، وخبرته المعرفية وبما يحويه النّص من مؤشّرات لغوية وسياقيّة وثقافيّة. فالفهمُ الصّحيح للنّص يقوم على حوار تفاعلي بين تجربة المتلقّي الذّاتية والتّجربة الموضوعية للنص، هذا الحوار الذّي تُترجمه القراءة السّليمة والواعية ويؤديه التّأويل. فالتّأويل - حسب الجرجاني - طريق الفهم الموضوعي للنص، وأداة قرائية لا يمكن للقارئ الاستغناء عنها أو تجاهلها، وإلاّ وقع في فخ المؤلّف، واستسلم أمام غطرسته وتلاعبه بالألفاظ وتنميقه للمعاني.

رغم أهمية التّأويل، فإنّ الجرجاني لا يفتحه بشكلٍ لا نهائي، ولا يُعطيه صلاحيات لا متناهية، من أجل ذلك لا يحبّذه في كلّ أجناس الكلام، فقد خصّص له مواضع محدّدة، وكيفيّات مخصوصة وضّحها فصله الموسوم ب:"درجات الحاجة إلى التّأويل" من كتابه "أسرار البلاغة"، حيث رَفض تأويل الكلام الواضح: « كتشبيه الشّيء بالشّيء من وجهة الصّورة والشّكل [...]، فالشّبه في هذا

كلّه بَيّنٌ لا يجرى فيه التّأويل [...]، أمّا الشّبه الذّي يحصل بضربٍ من التأويل كقولك: هذه حجّةٌ كالشّمس في الظّهور، فإنّك تعلم أنّ هذا الشّبه لا يتمّ إلاّ بالتّأويل [...]، إذ تقول الشّبهة نظير الحجاب فيما يُدرك بالعقول، لأنّها تمنعُ القَلب رؤيةَ ما هي شُبهة فيه كما يمنع الحجابُ العينَ»[15].

فالكلام المبهم أو المبني على تشبيهٍ عقلي يحتاج إلى تأويل؛ لأنّ العقل لا يستطيع إدراك معناه، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على أنّ التّأويل النّقدي مُرتبط بذات المتلقي، وهو تأول نسبي، وليس نهائيا للنّص.

لم يقف الجرجاني عند حدود التّأويل في تحديد المعنى الأدبي، بل راح يكشف لنا أثرَ محسّنات الفهم البلاغية كالاستعارة والتّمثيل والتّشبيه على عملية التّلقي، وكيفية استمالتها للقارئ، ولا نقصد بالاستمالة هنا تعطيل أدوات القراءة وآلياتها لدى المتلقّي، بل بالعكس إثارتها وتنبيهها، ولا نستغرب هذا من ناقد وبلاغي كبير كالجرجاني؛ « لأنّ فروع البلاغة والبيان وأقسام البديع وإن كانت تدفعُ إلى التّفصيل المملّ أحيانا لكثرة التّشعّبات [...] غير أنّ الجامع لذلك كلّه هو المتلقّي، لأنّ الجهد البلاغي يتحدّث عن النّص لحظة تلقّيه»[16]. ولهذا نجده قد أولى عناية كبيرة للاستعارة والتّمثيل والتّشبيه، وغيرها من المحسنات البيانية والبديعية التيّ من شأنها التأثير في المتلقي وفي عملية التلقي، فها هو يُشيد بفضل الاستعارة وأهميتها قائلا: « ومن الفضيلة الجامعة فيها أنّها تبُرز هذا البيان أبدا في صورة مستجِدة تزيد قدرَه نُبلا، وتوجِب له بَعد الفضلِ فضلا، وأنّك لتجدُ اللّفظةَ الواحدة قد اكتَسبت فيها فوائد حتىّ تراها مكرّرة في مواضع، ولها في كلّ واحدٍ من تلك المواضع شأنٌ مفرد، ومن خصائصها التيّ تذكر بها وهي عنوانُ مناقبها أنّها تُعطيك الكثيرَ من المعاني باليَسير من اللّفظ حتىّ تخرجَ من الصّدفة الواحدة عدّة من الدّرر»[17].

فالاستعارة إذن قادرة على منح القارئ مفاتيح النّص، بل قد ترسم له طريق المعنى الصحيح من خلال المواقع التيّ تحتلّها في النّص،والصّور التيّ تتوزّع على فضاءاته.

في تأثيرِ التّمثيل على المتلقّي قال الرّجل: « فأوّل ذلك وأظهره أنّ أُنسَ النّفوس موقوفٌ على أن تُخرجَها من خفيّ إلى جليّ، وتأتيها بصريحٍ بعد مكني، وأن تردّها في الشّيء تُعلمها إيّاه إلى شيء آخر هو شأنُه»[18]. لقد تجاوز الجرجاني ما يحدثه التّمثيل من فعل لحظة مخاض العمل الإبداعي، والانكشاف النّصّي إلى رصد ما يحدثه من ردود أفعال، واهتزازات في العوالم المعرفيّة والقِيَميّة للمتلقي زمنَ التّلقي، فلا ينفصل فهمُ التّمثيل عن معناه وعن الاستجابات التّي يُثيرها أو الوظائف التّي يُحقّقها فيه، وهي وظائف متنوّعة ومتشعّبة كما ذكرنا، ولها مظاهر عديدة نفسية ومعرفيّة وحتّى سلوكيّة.

وصفوة القول، لقد جعل عبد القاهر الجرجاني من المتلقّي طرفًا فعّالاً في عملية الإبداع بعد المؤلّف. بل شريكًا له في إنتاج النّص. فالقراءة الصّحيحة هي التيّ تحدّد قيمة النّص، وكثيرا ما استَعمل عبارات "ألا ترَى، أيصحّ، وانظُر، ألا تجد، أتراه ..."، هذه الصّيغ تشير إلى القارئ المتلقّي الذّي اجتمعت عنده الثّقافة والدُربة والمعرفة لأداء أعظم الوظائف وهي تلقّي النّصوص بإيجابيّة، إنّه يرفض القارئ السّلبي

الذّي يقف على عتبة النّص، كما يرفض المبدع الذّي لا يُراعي أحوال المتلقّي العامة لحظة إبداعه، بالنّسبة إلى الرّجل فعلا التّلقي والإبداع وجهان لعُملة واحدة، وتكاملهما هو ما يُحدثُ نصّية النّص وحقيقته، من أجل ذلك اهتمّ الجرجاني بالتّأويل وعدّه طريق الفهم الصّحيح للنّص، ولكنّه لم يغفل عن ضبط شروطه وكيفياته وأنواع النّصوص التّي يجب فيها.

2- حازم القرطاجني:

يعدّ حازم القرطاجني من كبار البلاغيين والنّقاد العرب الذّين أسهمُوا في إثراء النّقد العربي وتغيير التّعامل مع التّلقي نظَرا وتطبيقا، فمعظم رسائله ولاسيما كتابه القَيّم "مناهج البُلغاء وسراج الأدباء" يحملُ بين دفّتيه قضايا ومسائل بلاغية، يدور الكثير منها حول أثر الأساليب الشّعرية والهيئات البلاغية والبيانية في المتلقّي، ولقد أعانه على ذلك فيما يبدو بلاغته العربية، وفكره الفلسفي وطريقته المنطقية دون أن ننسى جرأته المعرفيّة والمنهجيّة الكبيرة التي كانت سببًا في إبعاده من السّاحة الرّسميّة الثّقافية الإسلاميّة وحرقِ كتبه.

خالَف الرّجل البلاغيين العرب في النّظر إلى صناعة الشّعر وربطها بالمحاكاة والتّخييل، إذ يقول بشأن صناعة الشعر: « لمّا كان المقصودُ مِن الشّعر إنهاض النّفوس إلى فعلٍ شيء أو طلبه أو اعتقاده أو التّخلي عن فعله، وجب أن تكون موضوعات الشّعر من الأشياء التيّ لها انتسابٌ إلى ما يفعله الإنسان ويطلُبه ويعتقده»[19]. فعلى كلّ شاعرٍ إذن مراعاة أحوال المتلقّي ونفسيته واعتقاداته، لأنّ غاية الشّعر هي إثارة عواطف المتلقي وتفجير كوامن نفسه حتىّ يتجاوب مع نصوص الشّاعر تجاوبا جماليا ومعرفيّا، فيقبل بما اختاره الشّاعر من صور، ويقاسمه لذّتها ومتعتها وحمولتها القيميّة التّوجيهيّة، ولذلك نجد حازما قد ربط حقيقة الشّعر بالمحاكاة والتّخييل، حيث أفرد لهذا العنصر حديثا مطولا في كتابه المذكور، ودافع لصالح تأثيرهما على نفس المتلقي،انظر إلى تعريفه للتّخييل: «أن تتمثّل للسّامع من لفظ الشّاعر المخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه،وتقوم في خياله صورةٌ ينفَعل لتخيّلها وتصوّرها، أو تصوّرُ شيئا آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهةٍ من الانبساط أو الانقباض»[20]. من الواضح أنّ غاية التّخييل هي إيقاظ اللّذة أو إيقاع الألم في نفس المتلقّي،ولن تتحقّق نيتك الغايتين إلاّ إذا تمثّل الشّاعر الألفاظ والمعاني التيّ تتواءم ونفسية المتلقي وأحواله، - وكأنيّ بحازم هنا - يوجّه دعوة إلى كلّ شاعر أراد إنجاح عمله الإبداعي بالتّأثير في المتلقي أن يتمكّن من فنّ التّخييل ويعرف دروبه الصّعبة ومآتيه المعقّدة، فالمخيّل من الكلام هو الذّي يُحرّك نفس المتلقي، ويثير فيها انفعالات هي الدّليل على تحقّق التّفاعل مع الأقاويل التّخييلة، فيحكُم لها أو عليها. والملاحظ أنّ حازمًا لم يتوقف عند الصّيغة الشّكلية والبيانية للشّعر كما فعل النّقاد الذّين سبقوه، بل تعدّاها إلى جوهره، وذلك من خلال تجاوزه للوظيفة السّطحية أو الظاهرية للمحاكاة والتّخييل إلى الكشف عن هدفها النّفسي، وهذا ما يتّضح من تقسيمه للمحاكاة إلى مألوفة ومستغربة، إذ يرى أنّ النّفوس تأنس للمحاكيات المستغربة، وتفاجئها الأقاويل غير المعهودة، فحازم لم يتوقف في تعقّب الأثر النفسي للمحاكاة عند لحظة مخاض العمل الشعري، بل تجاوزها إلى ما تُحدثه زمنَ

التّلقي، وهذا ما لم يتعرّض له القدامى، يقول «وقد سلكت من التّكلّم في جميع ذلك مسلكًا لم يسلكه أحدٌ قبلي من أرباب هذه الصّناعة لصعوبة مراميه، وتوعّر سبيل التّوصّل إليه،هذا على أنّه روحُ الصّنعة وعمدة البلاغة [...]، فإنيّ رأيت النّاس لم يتكلّموا إلاّ في ظواهر بعضِ ما اشتَمَلت عليه تلك الصّناعة، (فتجاوزت أنا تلك الظّواهر) [...] إلى التّكلم في كثيرٍ من خفاياها ودقائقها»[21]. لقد جعل حازم من المحاكاة والتّخييل جوهر الشّعر وروحه لما لهما من دور في تسهيل عملية الفهم لدى المتلقي وتحريك نفسه قبضا أو بسطًا.

لا يعني ما سبق عدم اتّفاق فكر حازم الفلسفي والنّقدي مع من سبقوه بالكُلّية، فهو مثلا يُشاطر النّقاد بعض الآراء النقدية لاسيما تلك التيّ تتعلق بآلة البلاغة والمتلقّي، يقول: «البلاغة ما فَهِمه العامي كفهمِ الخاصي، وكان بلفظ ينتبهُ له العامي، لأنّه لا عهد له بمثل نظمه ومعناه، واستوعب المراد كلّه، ولم يَزِد فيه ما ليس منه، ولا حَذفَ مما يحتاج من ذلك المطلوب شيئًا، وقرّب على المخاطب به فهمه، ولوضوحه وتقريبه ما بَعُد، وكثر من المعاني وسهل الاختصار لمن يفهم، والشّرح لمن لا يفهم، وترى التّكرار لمن قبل وإدمان التّكرار لم يقبل أو غفل»[22]. لقد ربط حازم غاية البلاغة ومقصدها بالإفهام، أي بالمتلقّي لا بالمتكلّم،كما فرّق بين نوعين من المتلقّين؛ عامي وخاصي، وأكّد على ضرورة مراعاة مستويات التّلقي بينهما، لأنّ ردة فعلهما إزاء الكلام تختلف. فالعامي يفاجئه اللّفظ البليغ، لأنّه غير معتاد عليه، إذ يكتفي بما يقدمه له من معنى، أمّا الخاصي فيثيره نظمُه ومعناه، الأمر الذّي يدفعه إلى الولوج في عالمه والتنقيب عن شحناته الدلالية والمعرفية ومكنونه الجمالي بشكلٍ أكثر فاعليّة.

الواضح هنا، أنّ حازما جعل من المتلقّي معيارَ القول البليغ والفهم الثّاقب، وهذه النّظرة النّفعية - على حدّ تعبير رشيد يحياوي- ليست رؤية حازمية، بل نظرة ضاربة بجذورها في عمق التّراث البلاغي العربي، ولقد مثّل لهذا بعدّة شواهد، نذكر منها قول الجاحظ: « مدار الأمر والغاية التيّ إليها يجري القائلُ والسّامع، إنّما هو الفهم والإفهام »[23].

نستطيع القول، إنّ حازمًا القرطاجني رغم ظهوره في فترة بدأت فيها الحضارة العربية تأفُل والنّظرة الفلسفية المنطقية تعمّ، إلاّ أنّه ساهم بقسط كبير في دفع الحركة النّقدية قُدمًا، لاسيما في الرّكن المعتني بالتّلقي الذّي يؤدّه المتلقّي.

خاتمة:

التّلقّي فعلٌ ضاربٌ بجذوره في أعماق أعمال النّقاد القدامى الذين صنّفوا المتلقّي صانعًا آخر للنّص ومبدعًا ثانيا له، فهو صاحب قرار فيصل في استحسانه أو استقباحه، غير أنّ هذه المكانة اهتزّت لمدّة طويلة، لتعود بقوّة مع ثلّةٍ من النّقاد والباحثين الجامعيين المحدثين أمثال نصر حامد أبو زيد في كتابه "إشكالات القراءة وآليات التّأويل"، ومحمّد المبارك وكتابه "استقبال النّص عند العرب"، ومحمّد عبّاس عبد الواحد في: "تلقّي النّص الأدبي وجماليته"، وغيرهم من المفكّرين الذّين تشبّعوا بالتّراث النّقدي البلاغي العربي، وتفتّحت آفاقهم الفكرية على المناهج الحديثة التيّ كانت نظرية التّلقي من آخر ما ظهر منها على يد كلّ من: هانس روبيرت ياوس، وفولفجانغ

إيزر، وإن كانت هذه النّظرية غربية المنشأ إلاّ أنّ تشابهًا كبيرًا نجده بين أصولها وأسسها الفلسفية، وبين عناصر التّلقي في النّص العربي القديم، ونلمح ذلك جليًا مع عبد القاهر الجرجاني، وحازم القرطاجني وابن طباطبا... وغيرهم كثيرٌ الأمر الذّي يحتّم علينا إعادة قراءة فكرنا البلاغي التّراثي لإحيائه من جهة، واستثمار مقولاته في بناء نظريات بلاغية عربيّة حديثة جذورها عربيّة، وتستفيدُ من البحث الغربي من أجل أن تتجاوز الخصوصية العربيّة إلى الشّموليّة الإنسانيّة من جهةٍ ثانية.

الهوامش والإحالات:

1- قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، ص 21.

2- محمد المبارك : استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، لبنان ، ط 1، 1999، ص 134.

3- محمد أمين المؤدب: النص الشعري القديم وفاعلية التلقي، يوم دراسي في موضوع: تلقي النص العربي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، آنفوبرانت للطباعة، فاس، المغرب، 2004، ص 10.

4- رشيد بن جدو: العلاقة بين القارئ والنص في التفكير الأدبي المعاصر، مجلة عالم الفكر، ديسمبر 1994، ص 483.

5- عبد القاهر الجرجاني:أسرار البلاغة، تحقيق: هـ. ريتر دار المسيرة، بيروت، ط3، 1983، ص 162.

6- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 128- 129

7- المرجع نفسه: ص 130.

8- المرجع نفسه: ص 129- 130 .

9- المرجع نفسه: ص ن .

10- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1999، ص 76.

11- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 83.

12- بسام قطوس: تمنع النص متعة المتلقي، أزمنه للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ط(1)، 2002، ص 60.

13- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 261.

14- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة: ص 261. .

15- المرجع نفسه: ص 81- 82 .

16- محمد المبارك: استقبال النص عند العرب،ص 271.

17- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ص 41 .

18- المرجع نفسه: ص 108 .

19- حازم القرطاجني: مناهج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ط 2 1981، ص 106 .

20- المرجع نفسه: ص 89 .

21- حازم القرطاجني: مناهج البلغاء وسراج الأدباء: ص 18 .

22- حازم القرطاجني: رسالة التقريب لحد المنطق، نقلا عن رشيد يحياوي التلقي في النقد العربي، مجلة علامات في النقد، الجزء التاسع عشر، المجلد الخامس، مارس 1996، النادي الثقافي بجدة، المملكة العربية السعودية، ص 276 .

23- رشيد يحياوي: التلقي في النقد العربي، ص 278.